توسكا .. جياكو مويوتشيني

Giacome Puccini TOSCA

"توسكا" مأساة غنائية في ثلاثة فصول تقوم على مسرحية الكاتب المعروف "فكتوريان ساردو" Victorien Sardou التي تصور الحب والانتقام. وقد نظم كلماتها "جيوسيبي جياكوزا" Giuseppe Giacosa و"لويجي اليكا" Luigi Illica ووضع ألحانها الموسيقى الإيطالي المشهور "جياكومو يوتشويني". وقدمت لأول مرة على مسرح "كوستانزي" Costanzi بروما في ١٤ يناير عام ١٩٠٠.

شخصيات الأوبرا:

ماريو كافارادوسي: رسام	Mariou Cavaradossi
البارون سكاربيا: رئيس البوليس	Baron Scarpia
تشيزاري انجيلوي: سجين هارب	Cesare Angelotti
فلوريا توسكا: مغنية	Floria Tosca
سبوليتا: ضابط بوليس	Spoletta

زمن الأوبرا: يونيه ١٨٠٠

المكان: روما

الفصل الأول

المنظر - كنيسة القديس أندريا بروما

يدخل السجين الهارب "أنجيلوتي" وهو يلهث من فرط الخوف والإعياء ويحدث نفسه قائلا:

– لقد قالت لي أختي أنها ستترك لي المفتاح بجوار العمود!

ثم يتجول بين أعمدة الكنيسة وفجأة يصيح في ارتياح:

– آخ!.. ها هو ذا!.. وها هو ذا معبد عائلة أتافانتي!

ويتلفت حوله في وجل ليتأكد من أن أحدا لا يتعقبه، ثم يدفع بالمفتاح إلى البوابة ويفتحها ولا يلبث أن يختفي بالداخل. وهنا يدخل كاهن الكنيسة وينظر إلى اللوحة الزيتية الموضوعة فوق قاعدة خشبية وقد ألقى فوقها غطاء من القماش، فيعلم أن الرسام لم يصل بعد. ويدق ناقوس، فيجثو الكاهن على ركبتيه ويغمغم مصليا.

وبعد لحظة يصل الرسام "ماريو كافارادوسي" مسرعا، ثم يتجه نحو لوحته ويكشف عنها الغطاء... إنها صورة العذراء ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي!

وينتهي الكاهن من صلاته ثم يتقدم نحو الرسام ويقول له:

الكاهن: أرى أنك لا ترسم سوى تلك السيدة التي كثيرا ما تأتى هنا للصلاة!

ماريو: نعم، فقد رسمتها ذات صباح وهي جاثية على ركبتيها

ويمضي الرسام قليلا في عمله ثم يضع فرشاه قائلا:

ماريو: إن الصورة مزيج رائع من شعرها الذهبي وبشرة حبيبتي "توسكا" السمراء!

ويخرج الكاهن، فيبقى الرسام بمفرده. وهنا يلمحه السجين الهارب أنجيلوتي وهو خارج من المعبد فيتذكره كصديق قديم ويندفع نحوه. وبعد برهة من الشك والدهشة يتحقق الرسام من أن حياة السجن قد غيرت تماما ملامح صديقه القديم أنجيلوتي. ويعرف منه تفاصيل هروبه فيغلق باب الكنيسة لحمايته. وهنا يسمع صوتا مألوفا يناديه:

– ماريو! ماريو!

فيهمس الرسام في أذن صديقه أنجيلوتي:

ماريو: أسرع فإنها توسكا!.. عليك أن تختبئ الآن حتى تذهب من هنا!

ويتوجه أنجيلوتي مرة ثانية نحو المعبد، بينما يذهب ماريو نحو الباب ليفتح لحبيبته. وتدخل توسكا في زهو وخيلاء، وهي تعبث بالريش الموضوع في قبعتها! وكيف لا وهي المغنية التي يتطلع إليها الجميع في روما؟!

وتسأل توسكا في حنق:

– لماذا كان الباب مغلقا؟ ومن الذي كان يتحدث معك في الداخل؟

ويحاول الرسام أن يهدئ من قلقها على الرغم من أنه أكثر قلقا على صديقه أنجيلوتي. وطبيعي أن يصرفه هذا القلق عن الترحيب بتوسكا والاهتمام بها. لكن عدم الاهتمام هذا يذكي في حب توسكا له والحرص عليه، فترجوه أن يقابلها تلك الليلة في المكان الذي اعتاد أن يقابلها فيه. وعلى الرغم من أن شوق ماريو إلى لقاء حبيبته لا يقل عن شوقها إليه، ألا أنه يحاول التخلص منها مما يسئ إليها، فيداخلها الشك وتظن أنه يريد منها أن تخلي له الجو لاستقبال "النموذج" التي يقوم برسمها، وإذ تتشبث عيناها بصورة الفتاة ذات الشعر الذهبي تصيح قائلة:

– إنها الماركيزة أتافانتي!

ويعترف لها ماريو بأنه استخدم في رسم الصورة ملامح المرأة التي طالما رآها تصلي في المعبد ثم يردف قائلا:

– ولكن عينيها أقل جمالا من عينيك!

ثم يحاول أن يحول نظرها عن الصورة فيقول لها:

– وليس هناك سبب يدعوك إلى الغيرة!

وهنا تسمع موسيقى ساحرة تطفئ نار الغيرة المتأججة في صدر توسكا. وتحت تمثال العذراء يجدد الحبيبان عهد الحب القائم بينهما بقبلة طويلة حالمة. ثم تمضي توسكا وهي تقول لحبيبها أنها تفضل لو أنه رسم عيني العذراء سوداوين كعينيها!

وما أن يخلو الجو حتى يسرع ماريو إلى العبد وينادي أنجيلوتي وهو يقول له:

ماريو: أن توسكا لا تكتم السر أبدا، ولذا لم أبح لها بأي شيء. والآن.. ما هي خطتك؟!

ويجيب السجين الهارب قائلا:

أنجيلوتي: لقد تركت لي أختي ثوب امرأة تحت المذبح.

وعندما أرتدي هذا الثوب يمكنني الفرار من قبضة البارون سكاربيا

ماريو: من الأوفق أن لا تنتظر هبوط الليل، فإنك ستجد ممرا ضيقا يبدأ من المبعد ويؤدي بك إلى منزلي. وهناك المفتاح. فعليك أن تختبئ

هناك. وإذا شعرت بخطر أسرع إلى الحديقة. وفي منتصف الطريق تجد ممرا يؤدي بك إلى مخزن تستطيع أن تلجأ إليه لتنجو من الخطر...

ويقطع كلام ماريو صوت طلقة مدفع فيصيح مذعورا:

ماريو: لقد اكتشفوا هروبك فيجب أن ترحل على الفور.. هيا لأصحبك!

ويخرج الصديقان، وبعد قليل يدخل البارون سكاربيا

رئيس البوليس – ثلة من الجنود. ويأمر سكاربيا الضابط سبوليتا بتفتيش الكنيسة. وحالما يعثر رئيس البوليس على مروحة:

– إنها تخص الماركيزة أتافانتي!

ثم ينظر إلى صورة العذراء المرسومة ويستطرد:

– وذاك وجهها!

وهنا يحضر الضابط سلة طعام فارغة من المعبد، ويتعرف عليها الكاهن فيضطرب ويقول متلعثما:

الكاهن: إن أنجيلوتي هنا، وهو الذي أكل طعام الرسام!

وفي هذه اللحظة تعود توسكا فلا تجد حبيبها. ويبرزها البارون سكاربيا المروحة عسى أن تثير غيرتها فتفضي بشيء ثم يسألها ماذا تعرف عنها. لكن توسكا تجيبه قائلة:

– لقد أتيت إلى هنا لأخبر الرسام ماريو أنني سأغني الليلة في الاحتفال فلن أتمكن من مقابلته.

وتخرج توسكا، فيطلب البارون سكاربيا من الضابط سبوليتا أن يتعقبها ويأتي له بالنتيجة في قصر "فرنيز".

الفصل الثاني

المنظر - مسكن البارون سكاريبا بقصر فرنيز

يحدث البارون سكاريبا نفسه وهو يتناول طعام العشاء فيقول:

– إن توسكا ساحرة جذابة!.. ولا بد أن يكون جنودي قد ألقوا القبض على الرجلين المتآمرين..

وهنا يدخل الضابط سبوليتا ويعلن قائلا:

– لقد تعقبنا السيدة إلى الفيلا، ولكننا لم نعثر على الرجل الذي نبحث عنه. غير أننا ألقينا القبض على الرسام "ماريو كافارادوسي"، ومن المؤكد أنه يعرف أين يختبئ ذلك الرجل.

فيأمر البارون سكاريبا بإحضار الرسام، ثم يرسل أحد الضباط لاستدعاء القاضي والجلاد..

ويقف الرسام ماريو أمام البارون فينكر معرفته لأي شيء يتعلق بأنجيلوتي، مما يثير غضب البارون.

وهنا تظهر توسكا، وقد ارتدت ملابس الاحتفال، وإذ تتقدم من حبيبها لتعانقه، يحذرها بألا تتفوه بشيء مما رأته في الفيلا.

وأخيرا يعلن البارون قائلا:

البارون: أيها الرسام ماريو كافاردوسي... إن القاضي ينتظرك ليأخذ شهادتك!

ثم يشير إلى غرفة على اليمين، ويصدر أمره إلى الجلاد بأن يقود الرسام إلى داخلها!

ويبقى البارون وتوسكا بمفردهما..

البارون: دعينا نتحدث كصديقين.. هل أنت متأكدة من أن أحدا لم يكن في الفيلا؟!

توسكا: نعم!

البارون: قولي الصدق فبهذا وحده تستطيعين إنقاذ حبيبك من التعذيب!

وترتعد توسكا لفكرة التعذيب الذي سيلحق بحبيبها فتسأل وقد غمر وجهها الأسى:

توسكا: وماذا أنتم به فاعلون؟

لكنها لا تلبث أن تسمع أنات صادرة من الحجرة التي دخل فيها الرسام..

وعبثا تحاول توسكا الاقتراب من باب الغرفة.. ويصدر البارون أمره إلى الجلاد بالاستمرار في التعذيب ثم يطلب من الضابط أن يفتح باب الغرفة.. وينبعث من داخل الغرفة صوت يمور فيه الألم.. إنه صوت الرسام!

ويكرر البارون سؤاله لتوسكا، لكن المغنية تصر على أجابتها.. وتتكرر أنات الرسام، فلا تقوى توسكا على احتمال تعذيبه وتبوح بصوت يائس:

توسكا: تجدون انجيلوتي مختبئا في بئر بالحديقة..

فيصيح البارون بالجلاد:

– كفى!

ويحضر الجنود الرسام بعد أن كاد يفقد وعيه من فرط التعذيب، فتمطره توسكا بسيل من القبلات الملهوفة. ويصدر البارون أمره إلى الضابط سبوليتا بإحضار أنجليوتي من حديقة الفيلا..

ولا يكاد الرسام سترد وعيه ويتبين ما حدث حتى يصيح بتوسكا قائلا:

ماريو: لقد خدعتني!

ويطلب البارون من أتباعه إبعاد الرسام فيخلو له الجو مع توسكا.. وإذ يقدم لها كأسا من الخمر يقول:

البارون: دعينا نتحدث عن إنقاذ حبيبك!

توسكا: ماذا تعني؟..

البارون: أعني أنني لا أطلق سراحه دون مقابل!

توسكا: وما هو الثمن الذي تطلبه؟

البارون: إنني لا أطلب نقودا!

ثم ينهض من مقعده ويقترب منها وهو يبدي لها إعجابه الزائد بجمالها وجاذبيتها، وأخيرا يطلب منها صراحة أن تمضي معه الليلة!

وترتعد توسكا لهذا الطلب السافر، فتسرع نحو الباب وهي تقول حانقة:

توسكا: إنني أفضل الموت على تحقيق هذا الطلب!

البارون: ولكنه ثمن إنقاذ حبيبك!

ثم يتجه نحوها ويحاول احتضانها بالقوة فتصيح مستغيثة، ويقطع الموقف قرع طبول، فيخبرها البارون بأن موعد إعدام الرجلين قد حل!..

وفي لوعة وأسى تنتحب توسكا وهي تقول:

– إنني لم أفعل شرا بأحد في حياتي.. فلماذا تتخلى عني السماء؟!..

ثم تتوسل إلى البارون أن يعفو عن حبيبها.. لكن البارون يكرر طلبه الذي لا يتخلى عنه.. وهنا يدخل الضابط سبوليتا فيعلن أن أنجيلوتي قد تجرع السم عندما ألقوا القبض عليه، وأن الرسام ينتظر قرار البارون بشأنه. فيسأل البارون توسكا:

– ماذا عندك من قول؟

وتبكي توسكا في حرقة عندما تتذكر العار الذي سوف يلحق بها إن هي طلبت إنقاذ حبيبها.. ولكن بكاءها يزداد عندما يتمثل لها حبيبها وهو بين يدي الجلاد، فتومئ إلى البارون بأنها توافقه على طلبه..

وهنا يقول لها البارون أن موقفه سيكون حرجا أن هو أطلق سراح حبيبها دون سبب ظاهر. فيقترح عليها أن يتوجه الرسام إلى مكان الإعدام ويصطنع الموت عندما يطلق عليه الجلادون النار، ويعدها بأن يصدر أمره إلى الجلادين لاستخدام طلقات "كاذبة". ثم يجلس إلى مكتبه ليكتب قرار الإعدام. وتلمح توسكا سكينا على المائدة فتتجه نحوها بحجة أخذ كأسا من الخمر. وفي حركة سريعة غير ظاهرة تخفي السكين في ملابسها، وينتهي البارون من كتابة القرار، ثم يتجه نحو توسكا ليطفئ ظمأه منها.. لكنه لا يكاد يحتضنها حتى تغمد توسكا السكين في صدره فيسقط على الأرض وقد انطفأت فيه الحياة!

الفصل الثالث

المنظر - ساحة السجن

يدخل السجان حاملا مشعلا، ويتبعه أحد الجنود وهو يقود الرسام إلى المصير الذي ينتظره. ويتوسل الرسام إلى الحارس أن يحمل له رسالة إلى توسكا، ويقدم إليه خاتما ثمينا كأجر على هذه المهمة. ثم يعكف على كتابة الرسالة، لكن ذهنه يسبح به إلى آخر لقاء له مع حبيبته..

وفجأة تظهر توسكا ومعها الضابط سبوليتا وأحد الحراس. وينسحب الرجلان، فتبقى توسكا مع حبيبها. ويقرأ العاشقان قرار الإعدام، ثم تخبر توسكا حبيبها بأنها قتلت البارون سكاربيا..

توسكا: سوف تذهب الآن للإعدام المصطنع!.. فعليك أن تسقط على الأرض بمجرد إطلاق النار.. وبعد ذلك سنكون أحرارا في البحث عن مستقبل باسم جميل!

وتتملك الحبيبين النشوة فلا يشعران بفرقة إطلاق النار وقد وصلت وأخذت مكانها، ويقود الضباط الرسام إلى حائط في مواجهة المعتقل الذي تنتظر فيه توسكا لتشاهد الإعدام المصطنع.. ويتأهب الجلادون.. ثم يطلقون النار! وتقول توسكا لنفسها عندما يسقط الرسام على الأرض:

- كم هو بارع في التمثيل!

ويغادر الضباط ساحة السجن يتبعه الحارس والجلادون بعد أن يضعوا غطاء فوق جسد الرسام. وتسرع توسكا نحو حبيبها المسجي على الأرض وقد تملكها شعور بالنصر!..

ولكنها لا تكاد تكشف عنه الغطاء وتقترب منه حتى تتبين أن أنفاسه قد خمدت.. لقد خدعها البارون وأمر بإعدام حبيبها!

وهنا يسمع من بعيد صوت ضابط يعلن اكتشاف قتل البارون سكاربيا! وتحوم الشبهات حول توسكا، فينطلق الجنود نحوها إلى حيث إعدام الرسام..

ولكن توسكا المفجوعة تدرك أن حياتها قد انتهت بموت حبيبها، فتسرع نحو الحصن وتلقي بنفسها من فوقه.

ستار